الفاء القرآنية ودواعي استعمالاتها

The Qur’anic fā’ and their uses

أ.م.د. صدّام حمّو حمزة
Asst.Prof.Dr. Saddam Hamza Hamza
جامعة كركوك / كلية التربية للبنات
Kirkuk University / College of Education for Girls
E-mail: dr.saddamkaplan@uokirkuk.edu.iq

الكلمات المفتاحية: الفاء القرآنية، السـياق القرآني، سـرعة تحقق الفعل، الفجأة، التعقيب المجازي.

Keywords: Quranic fa’, Quranic context, speed of action, suddenness, metaphorical commentary.

الملخص

الفاء القرآنية قرينة لفظية تسبق الجمل للإشارة إلى أنّ هنالك جملة محذوفة قبلها قد تكون أداة الشـــرط مع فعله، وقد تكون الجملة المحذوفة معطوفا عليها، وقد تكون جملة طلبيّة؛ ويكون التقدير بما يناسب سياق الكلام؛ والغاية من حذف ما قبلها تحقيق ملمح أسلوبي ينبني عليه بعد دلالي يتمثل إما بسرعة تحقق الفعل بعد الفاء، أو أنّ ما قبل الفاء قد حذف لأنّه لا يتعلق غرض بذكره، أو الدلالة على المفاجأة بالنسبة لوقوع الفعل بعد الفاء.

Abstract

The Qur'anic fā' is a verbal presumption that precedes sentences to indicate that there is a sentence omitted before it that may be the conditional tool with its verb, and the omitted sentence may be a conjunction with it, and it may be a demand sentence; The estimate is in accordance with the context of speech. The purpose of deleting what came before it is to achieve a stylistic feature on which a semantic dimension is based, represented in the following:

First, the indication that the pre-fae is omitted to indicate the speed at which the verb is achieved after the fae

Secondly / or that the pre-fae has been omitted because it is not related to the purpose of mentioning it

Thirdly, the Quranic fā' may indicate the metaphorical commentary, and what is meant by it is that what preceded it has been omitted because the context of the speech requires brevity, and the fā' in this case indicates the surprise in relation to the occurrence of the action that takes place after it

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيِّدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

إنّ للقرآن الكريم طريقة مثلى في توظيف أدوات اللغة العربية وحروفها لأداء المعاني التي يريد التعبير عنها، فيصل إلى المعنى المراد بأسلوب معجز، بريء من التكلف والإلباس، مع مراعاته للقرائن التي تعين المتلقي على فهم المعنى المراد.

ومن أساليب القرآن الكريم في توظيف الأدوات، توظيفه للفاء موضوعة البحث لتؤدي وظيفة أسلوبية جليلة في مواطن ورودها في البيان الأسمى، تتشظى إلى دلالات متعددة تنسجم كلّ منها مع سياق ورودها، وتعبّر عن قصدية الرسالة الكلامية بأدق تعبير، بحيث لا يمكن لأداة أخرى أن تقوم مقامها أو تؤدي دورها، كما سيتبين من مسار البحث.

ومع الوظيفة الجليلة التي تؤدّيها (الفاء القرآنية) إلّا أنّها لم تول أيّ اهتمام من النحويين، فلا يكاد القارئ يجد لها ذكرا في كتبهم، في حين أنّهم لم يتركوا فاء من الفاءات سوى القرآنية إلاّ ذكروها في كتبهم، وفصّلوا القول فيها كالفاء العاطفة والسببية والاستئنافية وفاء الجزاء...الخ.

ومرد ذلك إلى أمرين:

الأول: إنّ الشواهد على هذه الفاء في كلام العرب شعرا ونثرا قليل ونادر، ومن منهج النحاة في استنباط قواعدهم من كلام العرب الاعتماد على الكثير الشائع؛ أما القليل فلا تبنى عليه قاعدة.

الثاني: أنّ الفاء القرآنية موضوعة البحث تؤدي وظيفة أسلوبية تنبني عليها معانٍ أُخر، تتمثل بالدلالة على السرعة أو الفجأة وغيرهما، وتتبع هذه المعاني الأسلوبية لم يكن من منهج النحاة، لأنهم عنوا بالصنعة النحوية التي تفسر البنية السطحية للعربية بغية الوصول إلى قواعد شاملة مستنبطة من الشائع من كلام العرب ليعصموا الألسنة من الخطأ بعد تفشي ظاهرة اللحن وفساد السليقة اللغوية للعرب أنفسهم، فانبروا لوضع القواعد النحوية التي باتت سورا منيعا حافظ على اللغة المثالية من الفساد.

ومما يميز هذا البحث ويضفي عليه الجدة والتفرد، كونه يكشف عن الوظائف التي تؤديها هذه الفاء القرآنية، ولا تحصرها بوظيفة الإفصاح عن المحذوف كما في عدة دراسات وبحوث، كما أن مصطلح الفاء القرآنية الذي اعتمده البحث فيه من الاطلاق ما يتناسب مع تعدد وظائف هذه الفاء، بخلاف مصطلح الفاء الفصيحة التي تقيدت بكلمة الفصيحة لأن القائل به على قناعة بأن وظيفتها تنحصر بالإفصاح عن المحذوف وفي ذلك إجحاف بيِّن.

وقد قسِّـم البحث على مبحثين اثنين، تناول الأول مفهوم (الفاء القرآنية)، وتناول المبحث الثاني دواعي اسـتعمالاتها في السـياق القرآني، ثم انتهى البحث بخاتمة تناولت أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

وختاما فهذا جهد المقل قد بذلت فيه ما في وسـعي، قد أكون مصـيبا أو مخطئا فالكمال لله وحده، وإيّاه أسأل التوفيق والسداد والحمد لله ربِّ العالمين.

المبحث الأول: مفهوم الفاء القرآنية

الفاء القرآنية قرينة لفظية تسبق الجمل للإشارة إلى أنّ هنالك جملة محذوفة قبلها قد تكون أداة الشـــرط مع فعله، وقد تكون الجملة المحذوفة معطوفا عليها، وقد تكون جملة طلبيّة؛ ويكون التقدير بما يناسب سياق الكلام؛ والغاية من حذف ما قبلها تحقيق ملمح أسلوبي ينبني عليه بعد دلالي يتمثل بما يلي :

أولا: الإشارة إلى أنّ ما قبل الفاء حذف للدلالة على سرعة تحقق الفعل بعد الفاء

ثانيا: أو أنّ ما قبل الفاء قد حذف لأنّه لا يتعلق غرض بذكره

ثالثا: وقد تدل الفاء على التعقيب المجازي، والمراد به أنّ ما قبل الفاء قد حذف لأنّ سـياق الكلام يقضـي بالإيجاز، وتفيد الفاء في هذه الحالة المفاجأة بالنسـبة لوقوع الفعل الواقع بعدها.

وهذه المعاني لا سـبيل إليها مع ذكر الجملة المطوية قبلها، فكان حذف ما قبل الفاء وإبقائها دالة عليه هو الأنسـب لسـياق الكلام الذي ترد فيه، فهي تكشـف المحذوف قبلها وتدل عليه، ثم تلقي بظلالها على النص لتحقق له ملمحا دلاليا يتمثل إمّا بدلالة السـرعة أو الفجأة أو بالتعقيب المجازي؛ دون إخلال بالأسـلوب أو إضـاعة للمعنى، وهذه طريقة البيان الأسـمى في توظيف الحروف والأدوات وتسخيرها لخدمة المعنى وإيصالها بدقة متناهية وأسلوب معجز.

وقد أشـار فريق من البلاغيين والمفسـرين إلى هذه الفاء ومثّلوا لها بشـواهد قرآنية وبعض الشـواهد الشـعرية، وذكروا بأنها تفصـح عن جملة محذوفة قبلها، وقد اتسـعت شـقة الخلاف بينهم في تقدير الجملة المحذوفة، فذهب فريق منهم إلى أن الجملة المحذوفة قبلها جملة شرطية، ومنهم الزمخشري الذي ذكر بأنّ الفاء الفصيحة هي الفاء التي تكون جوابا لشرط مقدر مع الأداة، وأنّها لا تقع إلاّ في كلام بليغ[1]، وأضاف بأنّ حذف الشرط مع الأداة هو من أحاسن الحذف[2].

والرضـي الذي قال:" الفاء التي لغير عطف لا تخلو من معنى الترتيب وهي التي تسمى فاء السبب نحو : إن لقيته فأكرمه ،ومن جاءك فأعطه ؛وبدونها نحو: زيد فاضل فأكرمه؛ وتعريفه بأن يصـلح تقدير(إذا) الشـرطية قبل الفاء وجعل مضـمون الكلام السـابق شـرطها، وهو كثير في القرآن المجيد وغيره قال تعالى: (أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ)

[ص:10] وقال تعالى:(قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا) [ص:77,76] أي: إذا كان عندك هذا الكبر فاخرج؛ وقال:(رَبِّ فَأَنْظِرْنِي) [الحجر:36] أي إذا كنت لعنتني فأنظرني"[3].

وذهب فريق آخر إلى أنّ الفاء الفصـــيحة هي التي تعطف ما بعدها على معطوف محذوف[4].

وتكون عاطفة ما بعدها على معطوف محذوف إذا لم يصـــلح المذكور بعدها لأن يكون معطوفا على المذكور قبلها، فيتعين تقدير معطوف آخر بينهما يكون ما بعد الفاء معطوفا عليه[5].

وهذا مذهب السكّاكي الذي قال: "وانظر إلى الفاء الفصيحة في قوله تعالى:(فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ)[البقرة :54] كيف أفادت (ففعلتم فتاب عليكم)"[6].

وهذا أيضا مذهب الأزهري الذي عرّفها بأنّها الفاء العاطفة على مقدّر[7].

وقال الكفوي: الفاء الفصـــيحة "هي التي يحذف فيها المعطوف عليه مع كونه ســـببا للمعطوف من غير تقدير حرف الشرط...ولا تسمى فصيحة إن لم يحذف المعطوف عليه"[8]

ومما تقدم يتبين لنا أنّ عددا من العلماء قد حصـروا الفاء القرآنية في باب الشـرط، وهي عند هؤلاء الفاء الواقعة في جواب شرط مقدّر مع الأداة، وهذا مذهب الزمخشري والرّضي.

وحصـرها عدد آخر من العلماء في باب العطف، فهي عند هؤلاء الفاء العاطفة ما بعدها على محذوف لعدم إمكانية عطف ما بعدها على المذكور قبلها، وإذا أمكن العطف فهي عاطفة ليس إلّا، وهذا مذهب السكّاكي والأزهري والكفوي ومن وافقهم.

وفيما يبدو من مواطن ورود الفاء القرآنية في البيان الأسـمى أنّها أوسـع من أن تحصـر في بابيْ العطف والشـــرط، لأنّها تتنوع بتنوع ما دلّت عليه من المحذوف، فتارة يكون المحذوف قبلها أمرا، أو نهيا وتارة شرطا وتارة أخرى معطوفا عليه[9].

ومع ســـعة هوّة الخلاف بينهم في تقدير المحذوف فإنهم اتفقوا على تســـميتها بالفاء الفصيحة، ومرد هذا الاتفاق إلى أنّهم أجمعوا على حصر وظيفتها بالإفصـاح والكشف عن جملة محذوفة قبلها، فهي عندهم قرينة لفظية تدل على جملة محذوفة قبلها، وقد حصـــروا وظيفتها في ذلك؛ وبعد دراســـة متأنية تبين أنها أوســـع من أن تكون قرينة لفظية دالة على المحذوف، لأنها تؤدي وظائف أخرى فضـلا عن إفصـاحها عن جملة محذوفة وتتمثل هذه الوظائف بالدلالة على اختزال الفراغ الزمني بين الفعل الواقع قبلها وبين الفعل بعدها، فتشير إلى سرعة تحقق وقوع الفعل الناشئ بعدها بسبب الفعل قبلها، أو الدلالة على وقوع الفعل بعدها فجأة تبدد توقعات المتلقي، أو

تأتي لتطوي الكلام الذي لا طائل من ذكره لعدم تعلق غرض المتكلم به؛ وبذلك يتبيّن أن هذه الفاء تؤدي وظائف دلالية تخلق انسجاما بين العملية الكلامية وبين مقامها، فهي تعدو وظيفة الكشف عن المحذوف.

وبناء على ما تقدم ذكره فقد آثرت مصطلح الفاء القرآنية على الفاء الفصيحة، لأن مصطلح الفاء الفصيحة فيه حصر لوظيفة الفاء موضوعة البحث بالإفصاح عن المحذوف ليس إلاّ، والفاء القرآنية أدلّ عليها من الفاء الفصيحة لما فيه من إطلاق؛ وفضلا عن ذلك فإن هذه الفاء لا نجد لها في فصيح الكلام شعرا ونثرا ذكرا إلا نتفا لا يمكن الاعتداد بها لقلتها، وفي ذلك دليل على أن هذه الفاء بالوظائف التي تؤديها خاصة بالاستعمال القرآني

وذهب بعض المحدثين إلى إنكار وجود هذه الفاء، وذكر بأنّها الفاء السببية أو العاطفة أو الاستئنافية،" وهي لا تحمل محذوفا وراءها، وأنّ تقديرات علماء البيان والمفسرين ليست واجبة على النحاة الأخذ بها وإخضاع قواعدهم لها لأنّ الإعراب قد يخالف تفسير المعنى فلا حاجة إلى تقدير شيء بعد هذه الفاء"[(10)].

وإذا أمكننا أن نسلِّم لبعض ما ذهب إليه هذا الباحث فلا يمكن التسليم مطلقا لقوله:" وأن تقديرات علماء البيان والمفسرين ليست واجبة على النحّاة الأخذ بها وإخضاع قواعدهم لها، لأنّ الإعراب قد يخالف تفسير المعنى فلا حاجة إلى تقدير شيء بعد هذه الفاء" لأنّ هذا الكلام دعوة صريحة إلى فصل كيان النحو عن روحه المتمثل بالمعاني، ولا يخفى "أنّ عزل معاني النحو عن النحو مساءة به بالغة وجنوح به عن السبيل السويّ أيّ جنوح وتجريد للنحو من روحه حتى يصير جسما بلا روح"[(11)]، إذ بمراعاة معاني النحو والنظريات السياقية، يكون النحو نابضا بالحياة، لا بجعله أسيرا للصنعة النحوية التي أثقلت كاهل النحو العربي الرصين، إلى أن أطلقه من أسره عبد القاهر الجرجاني بنظرية النظم وأعاد للنحو العربي اشراقته، وبدل أن نخطو خطا الجرجاني الجليلة ونكمل ما وقف عنده، نجد هذا الباحث يدعو بهذه الدعوة التي تحاول أن تئد جذوة نظرية النظم المشرقة، لذلك لا يلتفت إلى مثل هذه الدعوات.

المبحث الثاني: دواعي استعمالات الفاء القرآنية

للوقوف على دواعي استعمالات الفاء القرآنية وكيفية توظيف الأسلوب القرآني لها في أداء معان لا سبيل إليها مع أسلوب آخر في الآيات التي وردت فيها نورد مواطن ورودها في القرآن الكريم مقسّمة حسب المحذوف قبلها، وفيما يأتي تفصيل هذه الأقسام:

أولا: ما كان المحذوف قبلها المعطوف عليه

ومن ذلك قوله تعالى:(وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا) البقرة/60

كشـــفت الفاء القرآنية في قوله تعالى:(فانفجرت) عن محذوف قبلها، وقد عطفت جملة(انفجرت) على المحذوف قبلها، وإنما قدِّر محذوف قبلها، لأنّ ما بعد الفاء لا يصـلح عطفه على المذكور قبلها، فيتعين في الحالة هذه تقدير معطوف يكون ما بعد الفاء معطوفا عليه، والتقدير: فقلنا اضرب بعصاك الحجر فضرب فانفجرت[12].

قال أبو السـعود:"(فانفجرت) عطف على مقدر ينسـحب عليه الكلام، وقد حذف للدلالة على كمال سرعة تحقق الانفجار، كأنّه حصل عقيب الأمر بالضرب، أي: فضرب فانفجرت"[13].

ولا يخفى أنّ إرادة السرعة هي الأنسب لسياق الآية، لأنّ المقام مقام تأييد وإجابة لدعوة نبي يدعوا ربّه أمام قومه، وفي سرعة الاستجابة لدعوته تأييد له، وتثبيت لقومه.

وجعل الزمخشري الفاء في (فانفجرت) واقعة في جواب شرط محذوف مع الأداة، والتقدير عنده: فقلنا اضرب بعصاك الحجر فإن ضربت بها فقد انفجرت([14].

ولم يرتض أبو السعود جعل الفاء متعلقا بشرط محذوف وقال: "وأمّا تعلق الفاء بمحذوف أي: فإن ضربت فقد انفجر، فغير حقيق بجلالة شأن النظم الكريم كما لا يخفى على أحد"[15].

وذكر ابن عاشور أنّ جعل الفاء في (فانفجرت) جواب شرط محذوف وجه غير بيِّن وأن من العجب ذكر الزمخشري لهذا الوجه[16].

إنّ القرآن الكريم يذكر ما هو محط العناية والاهتمام ويطوي ما عدا ذلك فلا يذكره، كما في هذه الآية الكريمة فإنّ تقديرها: فقلنا اضرب بعصاك الحجر فضربه فانفجرت، غير أنّ البيان الأسمى حذف الفعل(فضربه) لأنّه مفهوم من السياق، ولأنّه لا يتعلق غرض بذكره[17].

وكقوله تعالى:(قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْـقِي الْحَرْثَ مُسَـلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ) البقرة/71

الفاء في قوله تعالى:(فذبحوها) عطفت جملة (فذبحوها)، على جملة محذوفة قبلها

وحذفت الجملة ما قبل الفاء لأنّها مفهومة من سياق الكلام، وهذا من إيجاز القرآن الكريم وإبداعه، والتقدير: فطلبوا البقرة الجامعة للأوصاف المذكورة فيما تقدم وحصّلوها، فلما اهتدوا إليها ذبحوها؛ وهذا من الإيجاز بالحذف اللطيف لأنّ الفهم يدركه[18].

وقيل إنّ جملة (فذبحوها) جملة اســتئنافية لا محل لها من الإعراب، وأنّ الفاء فيها استئنافية[19].

وهذا قول يحتاج إلى شـــيء من الدقة، لأنّ الفاء في جملة (فذبحوها) قد عطفت جملة (فذبحوها) على محذوف دلّ عليه سياق الكلام، والتقدير: فطلبوا البقرة فلمّا حصّلوها ذبحوها[20]؛ وهذا التخريج هو الأنســـب لســـياق الآية، لأنّنا لو ســـلّمنا بقول من جعل الفاء في هذه الآية استئنافية وما بعدها جملة استئنافية، فإنّ معنى الآية يكون: أنّ الذبح قد ترتب على مجرد الأمر بالذّبح وبيان صـــفة المذبوح، وليس كذلك لأن الذّبح لم يترتب الّا بالحصـــول على الذبيح, وبهذا يتوجب تقدير جملة (فطلبوا البقرة الجامعة للأوصـــاف وحصّـــلوها) قبل الفاء، و جملة (فذبحوها) معطوفة عليها[21].

ويتبين مما تقدم مدى اســـتحكام نســـيج النص القراني وترابطه، فقد ربطت الفاء القرانية جملة (فذبحوها)، بالجملة المحذوفة التي طوي ذكرها لعدم تعلق غرض الكلام به، ولإشـــراك الســامع في صـناعة الدلالة المفهومة اعتمادا على نباهته، كما أن الفاء حققت ربطا مفهوميا بين جملة المعطوف المذكورة، وبين الجملة المعطوف عليها المحذوفة

ومن ذلك أيضـــا قوله تعالى :(فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا) الفرقان:36

تدمير الذين كذّبوا بآيات الله لم يحصـل عقب قوله تعالى: **(اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا)** كما يفهم ذلك من الوهلة الأولى، وإنّما التدمير حصل عقب المحذوف الذي هو التكذيب بآيات الله[22].

و"تقدير الآية: اذهبا إلى القوم فذهبا إليهم ودعواهم إلى الإيمان فكذّبوهما فدمّرناهم؛ فاقتصر على حاشيتي القصّة اكتفاء بما هو المقصود"[23].

وهذا المقصـود هو إلزام الحجة بإرسـال الرسـل، واسـتحقاقهم التدمير بسـبب تكذيبهم؛ والتعقيب المفهوم من الفاء في (فدمّرناهم) هو تعقيب باعتبار الحكم بالتدمير وليس وقوع التدمير[24].

وقد يكون التعقيب المفهوم من الفاء في (فدمّرناهم) تعقيبا مجازيا "ومعنى التعقيب المجازي أنّ المقام يقتضـــي المتكلم تقصـــير المدّة الطويلة فيأتي بالفاء"[25] لإرادة التعقيب دون التراخي.

ولعلّ الســـر في إيثار هذا التعقيب المجازي على ذكر ذهابهما إليهم ودعوتهم إلى الإيمان، هو أنّ الله سـبحانه لمّا وصـفهم بالتكذيب ابتداء، دلّ ذلك على أنّ صـفة الكذب ثابتة فيهم، وسواء أذهبا لدعوتهم أم لم يذهبا، فإنّهم لن يؤمنوا بدعوة الرسل لأنّ التكذيب ديدنهم؛ ومن هنا طوى ذكر ذهابهما وتكذيبهم لهما بعد دعوتهما لهم، لأنّه عرف من وصـفهم بالتكذيب ابتداء؛ وأتى بالفاء الدالة على التعقيب للإشارة الى سرعة تدميرهم لعتوهم وضلالهم.

قال ابن عاشور: "وقد حصل بهذا النظم ايجاز عجيب اختصرت به القصة، فذكر منها حاشيتها أولها واخرها، لأنهما المقصود بالقصة، وهو استحقاق الأمم التدمير بتكذيب رسلهم، والتدمير الإهلاك...واتباع الفعل بالمفعول المطلق لما في تنكير المصدر من تعظيم التدمير"[26]

وكقوله تعالى:(وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ) يونس:79-80 .

عطفت الفاء جملة (**فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ**) على جملة محذوفة يستدعيها سياق الكلام في الآية، والتقدير: فأتوه بالسّحرة فقال لهم موسى: ألقوا ما أنتم ملقون.

وإنمّا قدّر محذوف قبل الفاء في (فلمّا)؛ لأنّ الذي يعقب قول فرعون: (**ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ**) هو فأتوه بهم[27]، ولكن حذفت جملة (فأتوه بهم) "إيذانا بسرعة امتثالهم لأمر فرعون"[28].

ويمكن القول إنّ الفعل (فأتوه) قد حذف "لقلة جدواه في الغرض الذي سيقت القصة لأجله، حذف استغناء عنه بما يقتضيه ويدل عليه دلالة عقلية ولفظية من قوله: (جاء السّحرة) على طريقة الإيجاز"[29].

ومن ذلك أيضا قوله تعالى:(وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا) النمل:10.

الفاء في قوله تعالى: (**فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ**) "مفصحة عن جمل حذفت تعويلا على دلالة الحال وإشعارا بغاية سرعة تحقق مدلولاتها، أي: فألقاها فصارت حيّة فاهتزت فلمّا رآها تهتزّ وتتحرك كأنّها جان ولّى مدبرا"[30].

ولاشكّ أنّ دلالة السرعة في وقوع معجزات موسى (ﷺ) هو الأنسب لسياق الآية الكريمة؛ لأنّه سياق تحدٍّ وتصديق لبنوته.

ثانيا: ما كان المحذوف قبلها فعل الشرط مع الأداة

ومن ذلك قوله تعالى:(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) الروم:56

ذكر الآلوسي أن الفاء في قوله تعالى: (فهذا يوم البعث) أفصحت عن شرط محذوف مع الأداة، والفاء واقعة في جواب هذا الشرط المحذوف، وتقدير الآية: إن كنتم منكرين البعث فهذا يوم البعث[31].

واستشهد الزمخشري على حذف فعل الشرط مع الأداة وإبقاء الفاء دالة عليها واقعة في جوابها بقول العباس بن الأحنف (من البسيط):

قالوا خراسانُ أقصى ما يُرادُ بنا ثم القفولُ فقد جئنا خُراسانا[32]

وتقدير البيت: إن صحّ ما قلتم من أنّ خراسان أقصى ما يراد بنا، فقد جئنا خراسان وآن لنا أن نخلص[33].

فالفاء في سياق قوله تعالى: (فهذا يوم البعث)، قرينة لفظية تدلّ على شرط مقدّر قبلها، ومع كونها قرينة على شرط مقدّر قبلها في الآية الكريمة، فإنّ لها وظيفة أخرى في هذا السياق، وهي الدلالة على معنى المفاجأة[34].

وقد دلّت الفاء على معنى المفاجأة من حيث كونها تفيد التعقيب، والتعقيب المفهوم منها في سياق هذه الآية الكريمة تعقيب مجازي، لأنّ سياق الآية يقضي بتقصير الكلام كي يشعر بأنّ المنكرين ليوم البعث سيفاجؤون بسرعة حلول هذا اليوم وكأنّهم لم يعيشوا في الحياة الدنيا الاّ ساعة، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى:(**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ**) الروم:55 .

يتبين لنا مما تقدم الوظيفة الجليلة للفاء القرانية وكيف أنّها أفادت التعقيب والسرعة، وكأنّ حلول يوم البعث في المنكرين له، قد بلغ حدّا من السرعة بحيث لا يمكن معه إطالة الكلام، ولذلك حذف فعل الشرط وأداته إيذانا بكمال السرعة.

وفي التعبير عن إنكارهم ليوم البعث بهذا الإيجاز البديع،" توبيخ لهم وتهديد وتعجيل لإساءتهم بما يترقبهم من العذاب، والاقتصار على (فهذا يوم البعث) ليتوقعوا كل سوء وعذاب"[35].

ومن ذلك أيضا قوله تعالى:(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ) البقرة:80 .

الفاء في قوله تعالى:(**فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ**) قرينة على جملة شرطية مقدّرة قبلها والتقدير: إن اتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده[36].

وما بعد الفاء _جملة (**لَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ**)_ علّة لجواب الشرط المقدّر، لأنّ المعنى : إن كنتم اتخذتم عند الله عهدا بأن لا يعذّبكم إلا أياما معدودة، فلكم العذر في قولكم (**لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً**) لأنّ الله لا يخلف عهده[37].

إنّ الفاء لا تنافي تقدير الشرط، لأنّها تفيد كون ما بعدها سببا عن المحذوف سواء ترتّب عليه أم لم يترتّب[38]؛ ولكون ما بعد الفاء دليل شرط وجزائه، لم يلزم أن يكون ما بعدها مسببا عمّا قبلها، ولا مترتبا عنه حتى يشكل عليه عدم صحّة ترتب الجزاء في الآية على الشرط المقدّر، لأنّ (لن) للاستقبال [39].

وذهب أبو حيّان إلى أنّ جملة (فلن يخلف الله) جواب الاستفهام الذي ضمّن معنى الشرط[40].

وعلى الكلام الذي ذكره أبو حيّان تكون الفاء في (فلن يخلف الله) رابطة، ربطت الاستفهام المتضمن لمعنى الشرط في(أَتَّخَذْتُمْ) بجوابه الذي هو جملة (فلن يخلف الله).

ويمكن التســـليم بكلام أبي حيّان، لأنّه وجه محمول على القياس على ظاهر النص، وبذلك لا تكون هناك حاجة إلى التأويل أو التقدير؛ ثم إنّ تضـــمين الاســـتفهام والتمني والأمر والنهي معنى الشرط قد أجازه عدد من النحويين[41].

ثالثا: ما كان المحذوف قبلها جملة طلبية

ومن ذلك قوله تعالى: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) المائدة:19.

الفاء في قوله تعالى:(فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ) قرينة على جملة طلبية محذوفة قبلها

كما هو واضـــح من ســـياق الآية، وجملة (فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِـــير وَنَذِيرٌ) علّة للجملة الطلبية المحذوفة والتقدير: لا تعتذروا فقد جاءكم بشير ونذير[42].

ومن ذلك قوله تعالى: (يَسْـأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّـمَاءِ فَقَدْ سَـأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً) النساء:153.

الفاء في قوله: (فقد سـألوا موسـى) قرينة على جملة طلبية مقدّرة قبلها، وتقدير الآية: لا تعجب من سؤالهم لك بأن تنزل عليهم كتابا من السماء؛ لأنّ أســـــلافهم قد فعلوها من قبل مع موســـــى (عليه السـلام)، إذ سألوه معجزة أعظم من الذي سألوك، فقد أرادوا من موسـى (عليه السلام) أن يريهم الله سبحانه جهارا[43].

ودلّت الفاء على أنّ الجملة قبلها قد حذفت _جملة (لا تعجب من ســـؤالهم)_ ؛لأنّه لا يتعلق غرض من ذكرها؛ لكونها معروفة من سـياق الحال؛ إذ إنّ الذين أتوا رسـول الله(صـلّى الله عليه وسلم) يسألوه أن ينزّل عليهم كتابا من السماء آية على صحة نبوته هم اليهود، وهم أعرف الناس بصـــحة ما جاء به رســـول الله على ما عندهم من كتب وبراهين تثبت ذلك؛ وبدلا من أن يؤمنوا به يأتون رسول الله ويسألونه ما يبرهن صدقه، وهذا هو العجب بعينه.

والتعبير عن سؤالهم بصيغة المضارع (يسألك) لقصد استحضار حالتهم العجيبة في هذا السؤال حتّى كأنّ السامع يراهم[44].

ويجوز أن تكون الفاء واقعة في جواب شـرط مقدر، وإليه أشـار الزمخشـري بقوله: (فَقَدْ سَأَلُواْ موسى أَكْبَرَ مِن ذلك)، جواب لشرط مقدّر معناه: إن استكبرت ما سألوك فقد سألوا موسى أكبر من ذلك[45].

الخاتمة

لقد توصّل البحث إلى نتائج يمكن إيجازها فيما يأتي:

إنّ الفاء القرآنية هي قرينة لفظية تسبق الجمل للإشارة إلى أنّ هنالك جملة محذوفة قبلها قد تكون أداة الشرط مع فعله، وقد تكون الجملة المحذوفة معطوفا عليها، وقد تكون جملة طلبيّة؛ ويكون التقدير بما يناسب سياق الكلام؛ والغاية من حذف ما قبلها تحقيق ملمح أسلوبي ينبني عليه بعد دلالي يتمثل بما يلي:

أولا: الدلالة على سرعة تحقق الفعل بعد الفاء، وأنّ ما قبل الفاء حذف تناسبا مع سياق السرعة

ثانيا: أو أنّ ما قبل الفاء قد طوي ذكره لأنّه لا يتعلق غرض بذكره، لكون القصد ليس إليه

ثالثا: الدلالة على التعقيب المجازي، والمراد به أنّ ما قبلها قد حذف لأنّ سياق الكلام يقضي بالإيجاز، وتفيد الفاء في هذه الحالة المفاجأة بالنسبة لوقوع الفعل بعدها.

إنّ هذه الفاء موضوعة البحث يكاد يتفرد بها القرآن الكريم، لأنّ ورودها مؤدِّية الوظيفة التي أدّاها في السياق القرآني تكاد العربية تخلو منها، فلم يذكر الذين أشاروا إليها إلاّ بيتا واحدا ولم يتجاوزه إلى غيرها، مما يعني أنّ هذه الفاء من سمات التعبير القرآني، يُحذف ما قبلها ويُدل عليه بها ويبقى ما بعدها متعلقا بذلك المحذوف الذي في حذفه معنى لا سبيل إليه مع الذكر، ومن هنا آثر البحث تسميتها بالفاء القرآنية لكثرة ورودها فيه قياسا بندرتها في الكلام الفصيح.

إنّ الفاء القرآنية أوسع من أن تحصر في بابي العطف والشرط، لأنّها تتنوع بتنوع ما دلّت عليه من المحذوف، فتارة يكون المحذوف قبلها أمرا أو نهيا وتارة شرطا وتارة أخرى معطوفا عليه، ويقدر المحذوف قبلها بما ينسجم مع السياق.

الهوامش والمصادر:

(1) ينظر: الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: عبد الرزاق المهدي, دار إحياء التراث العربي/بيروت. 173/1

(2) المصدر نفسه 77/2

(3) شرح كافية ابن الحاجب، رضي الدين الاستراباذي، تحقيق: أحمد السيد أحمد، المكتبة التوفيقية/القاهرة. 34/2

(4) ينظر: البرهان في علوم القرآن, بدر الدين محمد بن عبدالله الزكشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم, مكتبة دار التراث/القاهرة. 182/3

(5) ينظر: التحرير والتنوير، محمد طاهر بن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي/ بيروت ،ط1 1420هـ_2000م. 387/1

(6) مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف ابن أبي بكر محمد بن علي السكّاكي، ضبط وتعليق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية/بيروت،ط2 1407هـ_1987م. /278

(7) شرح التصريح على التوضيح على ألفية ابن مالك في النحو، الشيخ خالد بن عبدالله الأزهري، تحقيق: أحمد السيد أحمد، المكتبة التوفيقية/ القاهرة. 503/3

(8) الكليّات(معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)، أبو البقاء أيّوب بن موسى الكفوي، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري, مؤسسة الرسالة/بيروت1419هـ_1998م. / 1072

(9) ينظر: إعراب الجمل وأشباه الجمل، د.فخر الدين قباوة, دار القلم العربي، ط5، سورية/حلب, 1409هـ _1989م. ص166وما بعدها

(10) نحو القرآن، أحمد عبد الستار الجواري, مطبعة المجمع العلمي العراقي/بغداد،1394هـ_1974م. ص16

(11) المصدر نفسه/16

(12) ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي/بيروت. 106/1

(13) المصدر نفسه 106/1

(14) ينظر: الكشاف 144/1

(15) إرشاد العقل السليم 106/1

(16) التحرير والتنوير 518/1

(17) ينظر: معاني النحو، د. فاضل صالح السامرائي، دار إحياء التراث العربي/بيروت، ط1 1428هـ_2007م. 333/2

(18) صفوة التفاسير, محمد علي الصابوني, دار إحياء التراث العربي/بيروت 2000م. 39/1

(19) ينظر: الإعراب المفصل لآيات الله المرتل، بهجت عبد الواحد صالح، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الطبعة: الثانية، 1418 هـ . 87/1

(20) ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني, أبو الفضل محمود الآلوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية دار إحياء التراث العربي/بيروت 292/1

(21) ينظر: صفوة التفاسير 60/1

(22) ينظر: معاني النحو 203/3

(23) ينظر: روح المعاني 18/9

(24) ينظر: تفسير أنوار التنزيل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي ، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي دار الفكر العربي/بيروت. 218/4

(25) معاني النحو: 203/3

(26) التحرير والتنوير 26/19

(27) ينظر: المصدر نفسه122/7

(28) روح المعاني 166/10

(29) التحرير والتنوير 122/7

(30) روح المعاني 74/2

(31) ينظر: روح المعاني 60/21

(32) ينظر: الكشّاف 494/3، والبيت في كتاب الأغاني، أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، تحقيق: الدكتور إحسان عباس والدكتور إبراهيم السعافين والأستاذ بكر عباس. دار صادر، بيروت، ط1423،1هـ –2002م. 388/8

(33) الكشّاف 494/3

(34) ينظر: التحرير والتنوير 180/11

(35) المصدر نفسه 82/21

(36) روح المعاني 304/1

(37) التحرير والتنوير 439/1

(38) المصدر نفسه 439/1

(39) روح المعاني 104/6

(40) ينظر: البحر المحيط 239/1

(41) ينظر: شرح المفصّل، للشيخ موفق الدين بن علي بن يعيش, تحقيق: أحمد السيد أحمد، المكتبة التوفيقية/القاهرة. 286/7

(42) ينظر: روح المعاني 375/3

(43) ينظر: التحرير والتنوير 12/6

(44) ينظر: المصدر نفسه 12/6

(45) الكشاف 168/1